وزارة التعليم العالي والبحث العلمي المادة : اللسانيات

جامعة الانبار – كلية الآداب أستاذ المادة : أ.د. علي حسين

قسم اللغة العربية - (الماجستير / لغة) الفصل الثاني (٢٠١٩ - ٢٠٢٠)

المحاضرة : (السادسة)

((الاختلاف في تحديد أهم الجوانب اللغوية))

تختلف مدارس اللسانيات باختلاف الجوانب اللغوية التي يوليها اللساني عنايته ، فالمدرسة التاريخية تهتم بتاريخ اللغة ، والمدرسة البنيوية تهتم ببنية اللغة ، والمدرسة الوظيفية تهتم بوظيفة اللغة ، والمدرسة التوليدية تهتم بكيفية توليد الجمل اللغوية غير المتناهية من قواعدها المحدودة العدد ، والمدرسة التخاطبية تعنى بتجليات اللغة في المقام التخاطبي . وسنشرح فيما سيأتي ـ بإيجاز ـ كيف اتجهت كل مدرسة إلى تتبع جانب معين من الجوانب اللغوية ، ونتتبع الظروف التاريخية ، والفلسفية التي أدت إلى أخذ كل مدرسة الاتجاه الذي مالت إليه ، كما سنوضح بعض أفكارها ، ومبادئها ، وفروعها التي تعين على فهم الأصول الفلسفية ، والمعرفية الموجهة لاتجاهاتها .

(مدارس اللسانيات)

ـ المدرسة التاريخية :

لقد كان لاكتشاف اللغة السنسكرتية (وهي لغة الهنود الدينية القديمة) أهمية كبيرة في اللسانيات التاريخية ، فقد ترتب عليه نشأة فقه اللغة المقارن ، ويعد المحامي الإنجليزي وليم جونز (١٧٤٦ـ ١٧٩٤) الذي قام بهذا الاكتشاف المؤسس الحقيقي لهذا الحقل المعرفي بعد أن صاغ افتراضه بأن اللغة السنسكرتية تشترك في أصلها مع اللاتينية ، والإغريقية ، والقوطية ، والفارسية . ثم تطورت اللسانيات التاريخية متأثرة بنظرية النشوء والارتقاء التي طورها تشارلز داروين في علم الأحياء ، يؤيد هذه الحقيقة أن كتاب أوغست شلايخر (١٨٢١ـ ١٨٦٨) الذي سماه(الخلاصة) ، وشرح فيه شجرة الفصائل اللغوية ظهر بعد سنتين فقط من نشر داروين كتابه في إنجلترا سنة ١٨٥٩.وقد أتبعه في سنة ١٨٦٣ ببحث عن نظرية داروين ، واللسانيات دعا فيه إلى إدراج اللسانيات في العلوم الطبيعية . ولا غرو فإن الفكرة الرائجة في ذلك الوقت هي أن اللغة كائن طبيعي حي ، ولذا ينبغي دراستها باتباع منهج يراعي هذه الحقيقة ، فإذا صح أنّ بعض الحيوانات انحدرت من فصائل منقرضة ، وأن ثمة قوانين تتحكم في نشوئها ، وارتقائها كالصراع من أجل البقاء ، والبقاء للأصلح ، فمن الممكن إذن إخضاع اللغات البشرية أيضا إلى قوانين مشابهة . غير أنه ليس هناك أتفاق بين لغويي القرن التاسع على الطريقة التي تتطور بها اللغة : هل تسير في اتجاه ارتقائي مثلما هو الحال في علم الأحياء حيث تتطور السلالات الأدنى إلى سلالات إلى سلالات أعلى ، أو تسير في الاتجاه المعاكس ؟ يرى راسموس راسك (١٧٨٧ـ ١٨٣٢) أن القواعد اللغات القدمى أكثر دقة ، وتعقيدا ، وأن تطورها إلى لغات فرعية يسير نحو التبسيط ، والتسهيل ، ويمثل لذلك بأن اللغة الدانماركية أبسط من اللغة الأيسلندية التي هي أصل لها ، وأن الإنجليزية أبسط من اللغة المتفرعة منها ، وهي الأنجلو سكسونية . أما شلايخر فيرى أن تاريخ اللغات القديم يشهد بأن التطور يسير من النقص إلى الكمال ، حيث تتطور اللغات من العزل إلى اللصق إلى التصريف . ولكي تتضح هذه النقطة علينا أن نذكّر بالتقسيم الثلاثي للغات الذي عرف في القرن التاسع عشر ، وهو تصنيف اللغات إلى لغات عازلة كالصينية ، والفيتنامية التي تتألف فيها الكلمة من جذر جامد غير متصرف لا يقبل لاصقة ، ولا صيغة ، ولغات لاصقة كالتركية التي تقبل لواحق زائدة على الجذر ، ولغات متصرفة كاللاتينية ، والعربية حيث تتألف الكلمة المركبة من مصرفات متمازجة يصعب فصلها ففصلا أفقيا ؛ بحيث يقال إن الجزء الأول مثلا يعني كذا ، والثاني يعني كذا ، كما في جمع التكسير في العربية (نحو أبواب ، كتب ، حدائق) ، وبناء على رأي راسك فإن البنية في العربية أكثر تعقيدا من التركية والصينية لكونها القدمى .

وقد اقتصرت مباحث الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر على الكلمات من حيث المستويان الصوتي ، والدلالي ، وإن كان المستوى الأول أكثر تطورا وموضوعية على الرغم من اعتراف أصحابه بأن النتائج التي توصلوا إليها إنما هي تفسير لنزعات ، وليس لقوانين صوتية دقيقة . وكانت أبرز الإنجازات في المجال الصوتي ، وضع بعض القوانين للإبدال الصوتي ، وأشهر هذه القوانين ما عرف بقانون غريم الذي يفسر كيف تطورت الصوامت في الفصيلة الجرمانية من أصولها في اللغات الهندية الأوروبية . ومن الأسباب التي تذكر لتفسير ظاهرة التغير الصوتي : التقريب الصوتي ، والاختزال الحذفي وفي إطار دراسة العلاقة بين اللغات يشير المؤرخون اللغويون إلى ظاهرتين تعرفان بالقياس ، والافتراض .وفي المجال المعنى كان موضوع التطور الدلالي ،

وقوانينه محور اهتمام اللغويين التاريخيين في القرن التاسع عشر ، ونظرا إلى صعوبة وضع أصول منتظمة للتطور الدلالي ، فقد فسر على نحو واسع بمصطلحات تقليدية ، أو حدسية مثل تخصيص المعنى ، وتعميمه ، والمجاز المرسل ، والاستعارة . ولم يظهر تفسير أكثر تنظيما للتغير ، والتطور المعجمي الدلالي إلا في فترة متأخرة جدا على يد ستيرن ، وغيره . ويرى سورن أن صوغ قوانين للتغير الدلالي يمكن تطبيقها على لغة ما ، أو مجموعة من اللغات على نحو مماثل للقوانين الصوتية أمر مستبعد على الإطلاق . ومهما يكن من أمر فإن تلك المصطلحات لا زالت تستخدم حتى الآن ، ويعتمد عليها كثير من اللسانيين في توضيح ظاهرة التطور الدلالي . ولعلنا لحظنا أنّ منهج اللسانيات التاريخية يعتمد على تتبع السببية التاريخية التي تؤول إلى تفسير الظاهرة اللغوية بناء على أسباب تاريخية ، وأنّ التأثيل ، وهو دراسة أصل الكلمات ، وتطورها كان وسيلتها المفضلة . ولولا خوف التباس هذا المصطلح في العربية بتحقيق المخطوطات لآثرنا ترجمته بالتحقيق لأنه أدق من حيث مفهومه ، فهو مشتق من الكلمة الإغريقية التي تعني حق ، أو حقيقي .ويشير لاينز إلى أن إحدى المدارس الإغريقية في القرن الخامس الميلادي كانت تقول أن العلاقة بين الدال ، والمدلول علاقة طبيعية ، وليست اصطلاحية وأنها اتخذت المنهج التأثيلي سبيلا لإثبات أن أصل الارتباط بين الدال والمدلول في كلمة ما كان طبيعيا ، وليس اصطلاحيا . وباتباع هذا النهج فإنهم في الواقع يبحثون عن الحقيقة الخافية على الناظر العادي في العلاقة الظاهرة بين الدال ، والمدلول . وبعد تحليل عميق للتغييرات التي حدثت لمبنى كلمة ما ، أو لمعناها لغرض اكتشاف أصل الكلمة ، ثم ـ بناء على ذلك ـ معناها الحقيقي فإنهم يصلون إلى حقيقة من حقائق الطبيعة . ولكن المشكلة التي يقع فيها أنصار المنهج التأثيلي هي ما سماه لا ينز بالزيف التأثيلي ، وذلك حين يحتجون بأن كلمة ما تعود إلى أصل إغريقي ، أو لاتيني ، أو عربي ، أو غيره ،و لذا فإن معناها ينبغي أن يكون مطابقا لما كانت عليه في الأصل. ويبدو زيف هذه الحجة في أن الافتراض الضمني بوجود صلة حقيقية ، أو مناسبة في الأصل بين المبنى ، والمعنى ـ وهو ما تقوم عليه هذه الحجة ـ لا يمكن التحقق منه . وشبيه بهذا ما يفعله بعض الباحثين عندما يفسرون المعنى الاصطلاحي لمفهوم ما بمعناه اللغوي مع أن احتمال ألا يكون المعنى الاصطلاحي مرتبطا بالمعنى اللغوي أمر وارد . وقد سبق لابن تيمية (٧٢٨ـ ١٣٢٨) ، وابن قيّم الجوزية (٧٥١ـ ١٣٥٠) أن اعتراضا على استخدام أنصار المجاز المنهج التاريخي في التمييز بين الحقيقة والمجاز مع صعوبة التثبت من أصل اللفظ ، وعدم وجود ما يفيد تاريخيا بسبق أحدهما على الآخر . ومهما يكن من أمر فإن التأثيل منهج مستخدم عوّل عليه الكثير من اللغويين تعويلاً كبيراً ولاسيما في القرن التاسع عشر حين وضع على أساس أمتن مما كان عليه قبل ذلك ، وما زال يستخدم حتى الآن ، ويعد فرعا محترما من اللسانيات التاريخية ، أو التعاقبية لما له من أسس منهجية خاصة تتوقف مصداقيتها على كمية الشواهد ، ونوعها التي يؤتى بها لتأييد تلك الأسس . وعلى الرغم من ذلك ، فمما أصبح واضحا للتأثيليين القرن التاسع عشر ، وسلّم به اللسانيون عامة في الوقت الحاضر أن معظم الكلمات في معجم أية لغة لا يمكن أن تعزى إلى أصولها . وما يفعله التأثيليَون الآن هو ربط كلمات لغة ما (في مرحلة قابلة للوصف التزامني من مراحل اللغة) بكلمات اللغة نفسها في مرحلة أقدم من مراحلها ، أو بكلمات لغة أخرى على أن تكون هذه الكلمات قد ثبتت صحتها ، أو إعادة تركيبها . ولكن هل يمكن ربط هذه الكلمات التاريخية التي ثبت صحة نسبتها ، أو إعادة تركيبها إلى مرحلة أخرى أقدم من ذلك باستخدام وسائل تأثيلية ؟ يتوقف ذلك ـ كما يقول لاينز ـ على الشواهد التاريخية التي وصلت إلينا ؛ إذ يمكن عزو كلمة الإنجليزية الحديثة إما إلى ،

المستخدمتين في الإنجليزية القديمة ، ويمكن أن نصل الكلمة الإنجليزية القديمة من خلال مراحل افتراضية متعاقبة بكلمة أعيد تركيبها ، ونسبتها إلى الهندية الأوروبية الأصلية تأخذ صيغة ، وتعني أيضا ، ولكننا لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك . وعلى أية حال ، فإن التأثيليين في الوقت الحاضر لا يهتمون بأصل الكلمات وكل ما يمكن أن يقولوه بثقة تقوى ، أو تضعف تبعا للشواهد هو أن كذا وكذا إنما هو مبنى ، أو معنى لكلمة افتراضية ، أو معروفة أقدم منها . وكما سنوضح في المبحث القادم ، فقد انتكس المنهج التاريخي بعد دعوة دو سوسور إلى الفصل بين الدراسات التزامنية ، والدراسات التاريخية .

ـ المدرسة البنيوية :

البنيوية هي نسبة إلى كلمة بنية التي هي ترجمة لكلمة المأخوذة من الكلمة اللاتينية التي تعني بناء وقد ارتبطت المدرسة البنيوية باللساني السويسري دو سوسور بعد دعوته المشهورة إلى التمييز بين الدراسات التعاقبية ، والدراسات التزامنية ، وتشديده على مفهوم البنية ، والنظام في اللغة . لم يكن دو سوسور معارضا للمنهج التاريخي في دراسة اللغة ، بل إن تاريخه يشهد بأنه أمضي كل حياته تقريبا في دراسة اللغات ، وتطورها معتمدا على هذا المنهج ، ولكنه رأى أن اللغويين كثيرا ما يخلطون بين دراسة بنية اللغة في مرحلة زمانية معينة ، ودراسة تاريخ تلك اللغة ، وتطورها . ولكي يوضح دو سوسور تفريقه بين الدراسات التعاقبية ، والدراسات التزامنية شبه اللغة برقعة الشطرنج حيث يتغير وضع الرقعة باطراد تبعا لكل نقلة يقوم بها أحد اللاعبين ، وفي كل مرة يمكن أن نصف وضع الرقعة وصفا كاملا بتحديد مواقع قطع الشطرنج (يعني الملك ، والوزير ، والقلعة ، والفيل ، والبيادق) ، وكذلك يمكن أن نفعل مع اللغة حيث يمكن وصفها في كل مرحلة زمانية من مراحلها . وكما أنه في رقعة الشطرنج لا يهمنا في كل مرحلة من مراحلها ماذا حدث سابقا من نحو : الطريق الذي وصل به اللاعبون إلى كل وضع من أوضاع المباراة ، وعدد النقلات السابقة ، أو نوعها ، أو ترتيبها ، بل يمكننا أن نصف الوضع الحالي للمباراة وصفا تزامنيا دون الرجوع إلى كل ما سبق ، فكذلك اللغة فهي تتطور تطورا مطردا من مرحلة زمانية إلى أخرى ، ولكننا نستطيع ـ بل يجب ـ أن نصفها في كل مرحلة دون الرجوع إلى ما كانت عليه سابقا ، وبغض النظر عما يمكن أن تؤول إليه . إن متكلمي اللغة عندما يستخدمون كلمة ما ، أو جملة ما لا يخطر ببالهم كيف كانت تستخدم تلك الكلمة ، أو تلك الجملة ، ولذا فإن الاستخدامات السابقة التي تنتمي إلى مرحلة تاريخية منقطعة عن مرحلة الحالية ليس لها تأثير في الوضع اللغة الحالي . إن التأثير الذي ينبغي أن نوليه اهتمامنا هو الذي ينشأ عن علاقة العنصر اللغوي الذي يستخدمه المتكلم (أو الذي يصفه اللغوي) بالعناصر اللغوية الأخرى ذات الصلة بالعنصر المستخدم (أو الموصوف) ، ولكي نوضح ذلك ، يمكن أن نقارن بين نظام الألوان في اللغتين اليابانية ، والعربية : فاللون الأزرق يتحدد بعلاقته بغيره من الألوان في اللغة الموصوفة ، وهكذا فإن الأزرق في العربية يعني ما ليس أخضر ، وليس أحمر ، وليس أبيض إلخ ، وهذا تعريف يختلف عن تعريفه في اليابانية ؛ لأن الأزرق ، وهو ما يعبر عن اليابانيون بكلمة (أوي) يطلق على ما نصفه في العربية بالأزرق ، والأخضر معا ؛ ولذا لا يمكننا القول أن الأزرق في العربية بقابل(أوي) في اليابانية . وبناء على ذلك يمكن القول: إن تحديد كل لون في النظام الألوان يخضع لعلاقته بالألوان الأخرى ، وهو يعني أننا نتعامل مع بنية متميزة محددة ليس للتاريخ فيها دور ، كما أن كل العوامل الخارجية بما في ذلك ما تشير إليه الألوان في العالم الخارجي ليس له صلة مباشرة بتحديد ما يعنيه اللون الأزرق في اليابانية ، أو العربية ، بل المحدد هو علاقة الجزء بغيره من الأجزاء. ويمكن أن نضيف هنا أن كل لغة تتصور العالم الخارجي ، ومحتوياته بطريقتها الخاصة ، وهو ما يقوي فكرة دو سوسور في اعتباطية العلامة اللغوية بطرفيها الدال ، والمدلول ، ويؤكد من جهة أخرى ـ بناء على ذلك ـ صعوبة الترجمة من لغة إلى أخرى ؛ إذ الترجمة ـ وفقا للمعطيات السابقة ـ ليست إعادة تسميات للأشياء بل إعادة تفكيك ، وتركيب للعناصر اللغوية .

وما ينطبق على نظام الألوان يتطبق كذلك على نظام الضمائر مثلا ، فالضمير أنتما في العربية يتحدد معناه بعلاقته ببقية الضمائر من خلال الموازنة بينه ، وبين سائر الضمائر الأخرى ،أما تاريخ الصيغة ، وكيف تركبت عبر العصور الماضية ، وعلاقتها بما هو خارج نظام العربية فليس له صلة بوصف نظام الضمائر في العربية .

إن تحديد نظام (أو بنية) الألوان في العربية لا ينحصر في العلاقات الاستبدالية القائمة بين الألوان المختلفة ، بل يتحدد أيضا بعلاقة اللون بما يأتي قبله ، أو بعده من كلمات ؛ إذ يمكن وصف اللون الأحمر بأنه قان ، ولكن لا يجوز أن نقول أبيض قان مثلا . وهكذا فإن تحديد المعنى المعجمي ، أو القواعدي لعنصر لغوي معين إنما يكون بالنضر في علاقاته الاستبدالية ،والائتلافية معا ، وهي التي تؤلف البنية . (راجع مبحث العلاقات الاستبدالية ، والائتلافية)

إن اللغة نظام نظري مجرد منفصل عن تاريخه ، وعن الواقع الخارجي ، غير أن هذا النظام المجرد يمكن أن يُجتلى ، ويتحقق في الواقع الفعلي ، ويرتبط بما هو خارج اللغة عندما ننقله من حيّز الوجود بالقوة إلى حيّز الوجود بالفعل عن طريق الكلام ، أو الاستعمال ، فعندما أقول " أنتما رجلان كريمان " لم يعد تحديد معنى كلمة أنتما في علاقتها بغيرها من الضمائر هي الوسيلة الوحيدة لفهم دلالتها ، بل ينبغي أيضا معرفة ما يشير إليه الضمير في العالم الخارجي ؛ أي معرفة الشخصين اللذين يقصدهما المتكلم ، ولكن اللغوية الذي يصف العربية لا يهمه المقصود ب(أنتما) في هذه القولة ؛ لأن هذه مسألة لا علاقة لها بنظام (أو بنية)

اللغة المجردة التي يوليها البنيوية كل اهتمامه . وبعبارة أخرى ، فإن البنيويين ـ خلافا لعلماء التخاطب ـ يعنون باللغة لا بالكلام ، أو الاستعمال .(راجع مبحث اللغة ، والكلام .إن بنيوية دو سوسور تعني دراسة بنية (أو بنى) اللغة في حد ذاتها على نحو مستقل ، ليس فقط بعزلها عن التاريخ ، أو العالم الخارجي ، بل أيضا عن نسيجها الاجتماعي التي تعيش فيه ، والعمليات النفسية التي يقوم بها متكلموها عند فهمها ، أو اكتسابها ، ولذا فمن المناسب جدا أن تكون الدراسات البنيوية مقتصرة فقط إطار اللسانيات المضيّقة. ومن الأسماء التي تذكر عادة في مسود أعلام المدرسة البنيوية اللساني المشهور هيلمسلف الذي تأثر كثيرا بدو سوسور لاسيما في عنايته بالمباني (أو الأشكال) على حساب الجوهر (أو المحتوى ، والمادة) ، وحاول أن يطور أفكاره البنيوية فيما عرف عنه بالتأويلات ، ونتيجة لصعوبتها ، وطبيعة مصطلحاتها غير المتجانسة لم تنل تلك الأفكار الاهتمام الذي تستحق . ومن الانتقادات التي وجهت لتأويلات هيلمسلف أنها نسخة نظرية ، وشخصية للسانيات دي سوسور غير أنه طبقها على نحو فيه مغالاة منطقية . وربما كان من المفيد أيضا التنبه على أنه بينما اهتمت البنيوية الأوروبية بزعامة دو سوسور بالعلاقات الاستبدالية ، كان البنيويّون الأمريكيّون يولون عنايتهم بالعلاقات الائتلافية ، ويعود هذا إلى أسباب منهجية سنوضحها فيما بعد. تميزت البنيوية الأمريكية بالصرامة العلمية ، والمنهجية ، ويرجع هذا إلى رائدها بلومفيلد الذي كان متأثرا إلى حد كبير بعالم النفس السلوكي واطسن . وقد شرح بلومفيلد منهجه في الدراسات اللسانية في كتابه : "اللغة" ، وكان أحد ثلاثة لسانيين بارزين في اللسانيات الأمريكية في الثلث الأول من القرن العشرين ، والآخران هما فرانز بواز ، وإدوارد سابير اللذان عرفا باهتمامهم باللسانيات الموسعة بدلا من الاقتصار على اللسانيات المضيقة . وقد انعكس هذا في التطرق للمباحث الأدبية ، والفنية ، والإناسية ، والنفسية ، وبيان الصلة بين هذه المباحث من جهة ، والمباحث اللسانية من جهة أخرى . دعا بلومفيلد إلى إبعاد دراسة المعنى من الوصف اللغوي بسبب صعوبة البحث فيه بحثا موضوعيا ، ومع أن بلومفيلد لم يقلل من شأن دراسة المعنى ، أو يدعو إلى عدم دراسته غير أن تعليقاته في هذا الموضوع لم يحملها الكثير من اللسانيين على المحمل الذي كان يقصده ، فأدى ذلك إلى إعراض جيل من اللسانيين عنه في الربع الثاني من القرن العشرين ، وربما كان هذا أحد أسباب تخلف البحث الدلالي عن نظائره من فروع اللسانيات الأخرى . وقد يكون من نتائج الاتجاه البلومفيلدي نحو العناية بالبنية ، وإبعاد المعنى أن بدأ اللسانيون يميلون إلى الوصف القواعدي لبنية الجملة ، فشاع عندهم ما يعرف بتحليل البنية المكوّنة الطارئة الذي تربط فيه المصرّفات بعضها ببعض في مشجّرات . وقد مهد ذلك

لظهور التوزيعيين الذين أخذ الوصف اللغوي عندهم طابع العناية بالعلاقات التوزيعية بين الصيتات في المركبات المتألفة منها وبين المصرفات في المركبات المتألفة منها ، وعلى الرغم من أن هاريس قد تمكن من تطوير جوانب من اللسانيات البنيوية فقد شاع إطلاق البنيوية حصرا على التحليل اللغوية الذي نظر له بلومفيلد .